ضرورة ملحة ...

د. أحمد بدر

دأبت جميع الشعوب منذ القديم على الاهتمام باستذكار ماضيها أو تسجيله . ولعل أقرب تفسير لهذا الدأب وذلك الاهتمام هو الفائدة التي تجنيها منه في حل معضلات حاضرها وتيسير سبيل السير نحو المستقبل الذي تريده والهدف الذي تبغيه .

وفي أعمال المؤرخين في كل العصور ولدى كل الامم ما يؤكد هذا القول ويدعم هذا الاتجاه . فهم لا يذكرون ولا يسجلون ؛ وليس بامكانهم أن يسجلوا أو يذكروا فيما لو أرادوا ذلك . كل أحداث الماضي وانما ذلك الجزء المفيد فقط في حل مشكلات الحاضر ورسم طريق السير للمستقبل . ألم يمحور هيرودوت عمله حول تبيان أوضاع الفرس واليونان عندما كان مجتمعه يعيش مرحلة المواجهة المصيرية مع الفرس ؟ ألم يركز توكيديس من بعده عمله التاريخي على استنباط قانون الغلبة وفي ذلك ما فيه من فائدة لموطنه الذي كان يخوض حربا تجاه خصم منافس للهيمنة على بلاد اليونان ؟

هذا غيض من فيض . ويمكن تعداد الامثلة بالنسبة لكل العصور ولجميع الامم : المنفعة تطغى على الفكر التاريخي . والتاريخ هادف دوما لحل معضلات الحاضر عند الامم وخدمة أهداف المستقبل ؛ وبالتالي لا بد لنا اذا اردنا البحث في ضرورة اعادة كتابة تاريخ الامة العربية من التوقف لاستجلاء واقع الامة العربية الحالي أو تطلعاتها المستقبلية وقياس المكتوب منه ؛ فان كان فيه ما يفي بالمطلوب ويحقق الغرض نبقى سائرين على الدرب . لتعمل جامعاتنا ومؤسسات البحث في وطننا العربي والعالم في اطار عملها المرسوم من التعمق في وقائع معروفة واستجلاء لغوامض مجهولة . وان كان خط السير يسير في اتجاهات معارضة لخدمة قضايا أمتنا الحاضرة ومتناقضة مع طموحاتها المستقبلية . عند ذاك لا بد من تصحيح المسار كي يتجه نحو الهدف . ولا مناص من معالجة المضمون كي يخدم في معالجة موضوعات الحاضر وتكييف السير نحو المستقبل . أما الواقع العربي الآن ؛ فهو مرور الامة العربية بمرحلة تأكد الذات القومية على صعيد الوعي والشعور ؛ ومحاولة التعبير سياسيا عن هذه الوحدة القومية بانشاء الدولة العربية الواحدة. لكن هذا لا يعني موت القديم ، فهو كما يحدث في التاريخ دائما ؛ باق على شكل رواسب من اقليمية وشعوبية وطائفية تدفع بالامة العربية الى التجزئة وتشدها الى الخلف ؛ وتكون عليها خطرا لا يمكن مقارنته بالخطر الذي تكونه على الامم الاخرى التي توجد فيها ، لان الامة العربية تجابه في الوقت الحاضر تحديات كبرى كالتحدي الحضاري المتجه نحو طمس معالم الشخصية الحضارية العربية وازالة خصوصيتها ؛ ثم تحدي الوجود العربي باغتصاب قلبه واقتطاع الاطراف من أغلب الجهات والتهديد بابتلاع المزيد .

أما الطموحات للمستقبل فتتجه نحو القضاء على

هذه السلبيات من رواسب ، وتحقيق الوحدة العربية في جميع المستويات وتحرير ما اغتصب واسترداد ما سلب . وبمقدار ما يتحقق من ذلك تتوفر الشروط الموضوعية الملائمة لممارسة الانسان العربي حريته السياسية والاجتماعية ، بخلاصه من الاستثمار والاستغلال بكل صوره ، الامر الذي يفسح أمامه المجال رحبا لتفجير طاقاته وحمل الرسالة من جديد للاسهام في بناء الحضارة الانسانية واحتلال مكانته اللائقة في ركب الحضارة الانسانية المتجه الى الامام .

تجاه هذا الواقع وأمام تلك التطلعات نجد ما هو مكتوب من تاريخ الامة العربية يتمثل بالمؤلفات التراثية التي كتب جلها في العصور الوسطى ، وهي كنز ثمين يمثل مدى التقدم الذي أحرزه العرب بالنسبة لغيرهم وعظمة اسهامهم للانسانية في هذا المضمار ، لكن التوقف عنده يعني اغفال التقدم الذي أحرزته الانسانية حتى عصرنا الحاضر ، كما ان كتّابه قد عاشوا مرحلة سلفت فيها من الاوضاع ولها من المتطلبات ما لا يتوافق أو على الاقل لا يتطابق مع أوضاع ومتطلبات أمتنا في الواقع الراهن . أما الانتاج الحديث بكل متفرعاته ، مما كتبه عرب واجانب ، سواء على شكل موسوعات أو مواضيع عامة أو أبحاث معمقة اوقائع جزئية ، ففيه القليل مما يحقق ويوصل الى الغاية ، اذ ان دراسات المستشرقين التي تعتبر النموذج المحتذى منهجا وطريقة عرض وانكبابا على موضوعات بعينها دون غيرها ، فيها ما يخدم أغراض الاجانب أكثر مما يخدم العرب ، لان هدفه الحصول على معرفة للامةالعربية شبيهة بمعرفة الطبيعة للسيطرة عليها أو لتحقيق أكبر قدر من الاستفادة منها . وانعكس هذا بانصرافالكثير منها نحو الدراسات التي تبرز التناقضات في المجتمع العربي بغية استغلالها أو استثمارها مثل الطوائف الدينية وما يدل على تمايز اقليمي أو قطري . أضف الىذلك ان المجموع الكلي للمكتوب عن تاريخ الامة العربية قاصر على الاحاطة بمسيرة الامة العربية ، عاجز عن توضيح صيرورتها الى الحاضر .

ما دام المكتوب عن تاريخ الامة العربية غير كاف ، اضافة لكونه مستخدما في الغالب كأداة ضد مصالحها بدل توظيفه في خدمة معالجة مشكلاتها الحاضرة وتطلعاتها المستقبلية . فلا بد لنا اذن من تلمس وسيلة ما لكتابة تاريخ عام للامة العربية يتعاون فيه الشكل والمضمون على تحقيق الغاية المرجوة . وفي اعتقادنا ان مجرد كون هذا التاريخ عاما يحدد للامة مسارا متصلا ومستمرا منذ العصور الموغلة في القدم حتى عصرنا الحاضر ، فيه ما يثبت في الاذهان خصوصية الامة العربية وشخصيتها الحضارية المتميزة ووحدة كيانها الدائمة . كما ان تقسيم هذه المادة الغزيرة من تاريخ أمتنا على أساس شرائح افقية تمثل تيارات شاملة للعرب بمجموعهم يمكن أن يقضي على سلبيات التقسيمات التقليدية ، من تقسيم على أساس قطري يغذي النزعات الاقليمية التي تقسم على أساس السلالات يقضي في الاذهان على استمرار مسيرة الامة ويعرضها للانقطاع بانقطاع هذه السلالات .

في مجال المضمون يجب توخي الخلاص من مفهوم النسابين لتاريخ الامة العربية، فلا تدرس الامة كمجموعة قبائل متنقلة يتسع مسرح أحداث تاريخها بانتشارها ، بل يجب دراسة تاريخ الامة العربية مرتبطا بأرضها بحيث تبقى أرض الوطن العربي هي المسرح الدائم لكل الوقائع والمنجزات ، ويكتسب ذلك أهمية كبيرة في يومنا هذا ، خاصة لتعرض أراضينا للاغتصاب فيالقلب والاطراف والتهديد الماثل بزيادة المغصوب .

كذلك لا بد من التركيز على ابراز التيارات الموحدة والعاكسة لوحدة المصير فيجميع مراحل التاريخالعربي. هذا الى جانب تزود من يتصدى لكتابة تاريخ الامة العربية برؤية عصرية متبصرة للوقائع التاريخية ، فلا يسمى امتشاق الحسام دفاعا عن معتقد في الدين والفكر والعدالة الاجتماعية فتنة ، بل ثورة تعكسالنزوع العميق للامة العربية للحرية . كما ينظر الى الانقسامات الدينية والمذهبية في جذورها البسيطة من اقتصادية واجتماعية وسياسية ، مميزا بين هذه الجذور ومبالغات وتهويلات المؤرخين المتتالين وتراكمات الزمن ، وفي هذا اسهام في ازالة الحساسيات الطائفية والحزازات الاقليمية التي تصل عند البعض الى حد الشعور بالشخصية المميزة للطائفة .

وأخيرا من الضروري أن تشمل الرؤية بتبصرها أصالة الحضارة العربية وعدم الخلط بين الانفتاح على الآخرين للاخذ منهم ونسبة كل جديد مبتكر لدى العرب الى ما يشبهه في الحضارات السابقة .

هذه نقاط سريعة تعبر عن خطوط عريضة جدا يمكن التوقف عند كل منها لتفصيل جوانبها وشرح محتواها وضرب الامثلة عليها .

وأرى بالتالي أن تتركز أبحاث مؤتمر تاريخ الامة العربية على المواضيع التالية :

(١) الاهداف التي يتوخاها العرب من كتابة تاريخهم .
(٢) مدى كفاية المكتوب عن تاريخ العرب للوفاء بالغرض .
(٣) الاسس المعتمدة في كتابة تاريخ العرب منهجا وشكلا ومضمونا في حالة تبين حاجته لاعادة كتابته .
(٤) وسائل التنفيذ .

أحمد بدر

أستاذ التاريخ الاسلامي بجامعة دمشق